صور جديدة من الأدب العربي

في مجلس سيف الدولة

٣

بين المتنبي وابن خالويه

« فوثب ابن خالويه على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه ، وخرج المتنبي ودمه يسيل على ثيابه »

« رأيتكم لا يصون العرض جاركم ... ولا يدرّ على مرعاكم اللبنُ
جزاء كل قريب منكم ملل ... وحظ كل محب عندكم ضغنُ »
« المتنبي »

رأينا — في المقال السابق — كيف تألب خصوم المتنبي عليه وكيف أجمعوا أمرهم على الكيد له ، وعلى رأسهم أبو فراس الذي تصدى لنقد المتنبي وتزييف كل معانيه ، وإظهار سرقاته من الشعراء ، وقد بدا التحامل على المتنبي واضحاً جليًّا ، ولولا أن بديهته الحاضرة ويقظته وحسن حيلته قد أنقذته من هذا المأزق لكان له مصير آخر لا يعلمه إلاّ الله وحده ، ولقد أفلح خصوم المتنبي في مؤامرتهم وتمّ لهم إيغار صدر أميره عليه ، فضربه سيف الدولة بالدواة ، فقال المتنبي :

«إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح اذا أرضاكم ألم»

ولم يكد سيف الدولة يسمع منه هذا المعنى الطريف حتى ابتسم له ورضي عنه وأجازه ولم يصغ إلى مطاعن اعدائه ولم يستمع إلى كلام ابن فراس ، فكان ذلك الرضى نهياً لمن في المجلس عن التمادي في عدائهم للمتنبي وامراً لهم بالكف عن تحديه وثلبه . فأنت ترى أن سيف الدولة هو محرك القوم ومسكنهم ، وموجه هذه الاشباح والصور في الطريق التي يختطها ويرضاها ، فإذا شاء أنطقها وإذا شاء اسكتها ، وأنت ترى أن في يده وحده «مفتاح الخطر» وأن ابتسامة منه كانية لتشجيع أعداء المتنبي وأن اشارة واحدة منه كانت كفيلة بإنصاف المتنبي وإدالته من خصومه . ولكن سيف الدولة لم يفعل وأبى — في هذه المرة — إلاّ أن يتجهم للمتنبي ويناصبه العداء ، كما ترى ذلك في إعراضه الثالث

اعراض الثالث

وقد كان هذا الإعراض الواضح — بعد ما لقيه المتنبي من قبل من اعراضه — سبب تغريب المتنبي ، يائساً من سيف الدولة واثقاً من أن الدسائس قد اوغرت صدره عليه فلم يعد التودد له نافعاً . ولم يكن المتنبي يجهل أن ابن خالويه لم يشج رأسه إلا بمساعدة سيف الدولة وأنه ما كان ليجرؤ على ذلك لو لم يأمن عقاب أميره . ومثل لنفسك رجلاً كالمتنبي في مجلس سيف الدولة ، يجادل ابن خالويه فينتصر عليه ويهزمه . فلا يجد ابن خالويه ما يرد به عليه إلا أن يضرب رأسه بالمفتاح فيشجه ثم يرى سيف الدولة راضياً بهذا الجواب ولا يتحرك أحد من الحاضرين لنصرة المتنبي فلا غرو إذا قال المتنبي — بعد أن فارقهم — :

« رأيتكم لا يصون العرض جاركم »

ولقد طالما حذر المتنبي سيف الدولة عواقب هذا التحامل ، ولوح له بالفراق فما غير ذلك من سلوكه معه . ولقد قال له في احدى قصائده :

« إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم »

وقال له من قصيدة أخرى :

« أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطين الناس ما أنا قائل[1] »

ولكن سيف الدولة لم يصغ إليه بعد أن تمكن الوشاة من افساد العلاقات بينهما. ولم ينس المتنبي طول حياته أثر هذه الوشايات والدسائس ، وقد اشار اليها — بعد ذلك — في عدة مناسبات ، منها قوله في ميميته المشهورة التي قالها بعد تغربه الى مصر : —

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

---

(١) قال ابن جني — :
« كنت قرأت ديوان أبي الطيب المتنبي عليه ، فقرأت قوله في كافور ، القصيدة التي أولها :
أغالب فيك الشوق ، والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر ، والهجر أعجب
حتى بلغت قوله — :
« ألا ليت شعري هل أقول قصيدة ولا أشتكي فيها ولا أتعتب
وبي ما يذود الشعر عني أقله ولكن قلبي يا ابنة القوم قلب
وأخلاق كافور — اذا شئت مدحه وان لم أشأ — تملي علي وتكتب » .
فقلت له — : « يعز علي كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة »
فقال — : « حذرناه وأنذرناه فما نفع ، ألست القائل فيه
أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطين الناس ما أنا قائل
فهو الذي أعطاني كافوراً بسوء تدبيره وقلة تمييزه ! »
تقول : « وفي هذا الحديث من الألم ومن الزهو والغرور ما لا يخفى على القارئ »

وفي هذه القصيدة يقول : —

أصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها في فعله والتكلم
وأحلم عن خلي وأعلم أنه متى أجزه يوماً عن الحلم يندم

وأشار الى ذلك في نونيته المعروفة — حين بلغه أن حساده وشانئيه قد نعوه إلى سيف الدولة — فقال متهكماً بهم — وان كان تهكماً لاذعاً يخامره الألم والحزن : —

يا من نعيت على بعد بمجلسه كلٌّ بما زعم الناعون مرتهن
كم قد قتلت وكم قد متُّ عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن
قد كان شاهد دفني قبل قولهم جماعة ، ثم ماتوا قبل ما دفنوا
ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

وفي هذه القصيدة يقول :

وان بليت بود مثل ودكم فإنني بفراقٍ مثله قمن

وما زال المتنبي يذكر دسائس اعدائه حتى بعد ان زالت الوحشة بينه وبين سيف الدولة ، فقد اعتذر عن الرجوع إليه بعد أن دعاه اليه فقال : —

« وما عاقني غير خوف الوشاة وأن الوشايات طرقُ الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه وينصرني قلبه والحسب

وجماع القول أن الوشاة قد أفلحوا في تغيير قلب سيف الدولة على شاعره المقرب المحبوب الذي سجّل له شعره صفحات لا تمحى في سجل الخلود ، فلم يعد سيف الدولة يهشُّ له كعادته ، وقد كان — كما يقول المتنبي — « يدني مجلسه من سماته » ثم تنكر وأظهر له الجفاء ، وكأنه لم يرض عنه في المرة السابقة إلا ريثما يتحول عنه ويضاعف سخطه عليه ويسمح لمثل ابن خالويه بشجِّ رأسه

ولقد عاب بعض الادباء على المتنبي سكوته في مثل هذا الموقف وعدّوه عليه جبناً وخوراً — ونراه حزماً وأصالة رأي — ولو فعل المتنبي غير ذلك لكان متهوراً طائشاً ولأمكن أعداءهُ وحاسديه من الفتك به وأروى نفوسهم الظمأى الى الانتقام منه بذلك الطيش

ولقد كان المتنبي واثقاً من أن سيف الدولة ينتقم منه بيد ابن خالويه ، وقد كان من عادة سيف الدولة — كما أسلفنا — اذا تأخر عنه مدح المتنبي أن يحضر من لا خير فيه فيتقدم بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب !

وقد أحضر له في هذه المرة ألد خصومه وأشدهم حسداً له وغيرة منه ، وهو ابن

خالويه ، وقد ذكرنا آنفاً ان عداوتهما مزدوجة لأنها عداوة بين مدرستين وعداوة بين متنافسين ، وكثيراً ما دارت بينهما المناظرات ثم انتهت بسلام ، أما في هذه المرة فقد اجترأ ابن خالويه على المتنبي — لأمر ما — وضربه في حضرة سيف الدولة فشج رأسه دون ان يحرك سيف الدولة ساكناً او يبدي اشمئزازاً من ذلك . قالوا :

«وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة فيتكلمون بحضرته ، فوقع بين المتنبي وابن خالويه كلام ، فوثب ابن خالويه فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه ، وخرج المتنبي ودمه يسيل على ثيابه »

قالوا : «فغضب المتنبي وسار الى مصر وامتدح كافوراً»

عداوة المتنبي وابن خالويه

أما عداوة ابن خالويه للمتنبي فهي عداوة اصيلة فقد كان المتنبي يترفع عنه — وهو مؤدب سيف الدولة وزعيم علماء النحو واللغة في حلب — وكان المتنبي حاضر الجواب سريع الخاطر وكثيراً ما انتصر على ابن خالويه ، فقد كان المتنبي — على انفراده بزعامة الشعر في عصره اكثر تمكناً في اللغة وأساليبها من ابن خالويه وأقدر على هزيمته رغم تخصص ابن خالويه في درس اللغة والنحو

ومن عجيب الأمور انا نرى من يتخصص في اللغة وحدها يعجز عن مباراة من يضم — الى عنايته باللغة وتفهم أسرارها — التخصص في آدابها او بعض علومها . ولعل السر في ذلك راجع الى ان الأول جامد على درس اساليبها عاكف على الفاظها ، والثاني مجدد في اساليبها متصرف بفنون القول فيها (١)

وان نظرة تلقيها على ديوان المتنبي وأخرى تلقيها على كل ما ألفه ابن خالويه لتكفيان لاقناعك بهذا الرأي

فالمتني في ديوانه متفنن ماهر وشاعر خلاق مبدع يطالعك بأبرع الصور وأروع المعاني ، اما ابن خالويه فلا ترى في مؤلفاته إلاّ طول الصبر وقوة الصبر والجلد على تدوين كتاب « ليس في كلام العرب » وكتاب « اعراب ثلاثين سورة من القرآن (٢) » وكتاب « المقصور والممدود » وكتاب « المذكر والمؤنث » و « الالفات » و « شرح مقصورة ابن دريد » الخ

---

(١) ولقد كان المتنبي الى شاعريته الفذة عالماً لغوياً كبيراً ، قالوا :
« وكان يكثر من نقل اللغة والاطلاع على غريبها وحوشيها ، ولا يسأل عن شيء الا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر » (٢) هو كتاب القراءات

فأنت تراه في كل تآليفه متبعاً لا مبتدعاً ومصنفاً لا مبتكراً وشارحاً لا منشئاً ، ولعل خير ما قرأناه من شعره هو قوله :

إذا لم يكن صدر المجالس سيداً ... فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل: «مالي رأيتك راجلاً ؟» ... فقلت له : «من أجل انك فارس!»

وهو كما ترى شعر كل ما فيه من جمال ان به مقابلة طريفة ونكتة مستملحة . وهو بعد ذلك اذا لم تعده شعراً تافهاً أو عادياً فلن تسمو به الى شعر الفحول[1]

وأنى للعالم اللغوي النحوي أن يتسامى الى منافسة فحول الشعر ، ولقد كان خيراً لابن خالويه لو وقف عند حده ولم يرهق نفسه بحسد المتنبي والتطلع الى منافسته »

وانا لنرى من الحق علينا أن نقرر — قبل أن نختم هذه الكلمة — إجلالنا لعبقرية المتنبي وإعجابنا بنبوغ ابي فراس وتقديرنا لجهد ابن خالويه . وما كان أجدر هؤلاء أن يكونوا يداً واحدة وان يتعاونوا جميعاً في خدمة الادب ، ولكنها شهوات الأحقاد والأنانية والحسد تأبى إلا ان ينسى المعاصر حسنات معاصره ويجعل من مثل ابي فراس والمتنبي خصمين وهما أجدر أن يكونا أخوين وصديقين . ومن يدري ، فعل المتنبي لو تأخر به الزمن لكان من المعجبين بشعر ابي فراس ، ولو تقدم به الزمن لكان ابو فراس من المفتونين بشعره ، كما فتن ابو العلاء المعري ، بالمتنبي وأشاد بفضله . ومن يدري ماذا كان يقوله لنا ابو العلاء عن المتنبي لو كان معاصراً له ، رغم ما نعرفه في أبي العلاء من حب الانصاف والحرص على الحقيقة ! ولا نزال نرى من اعلام عصرنا الحالي وكبار ادبائه من يمثل لنا هذه المآسي الى اليوم ، وهكذا يأبى التاريخ الا أن يعيد نفسه ويحقق قول ابي العلاء

« .. .. وهذي الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة ... خلاف الذي مرت به السنوات »

كامل كيلاني

---

(١) ومما اختاره له صاحب اليتيمة من الشعر قوله — في وصف برد همذان — وفيه من التكلف وضعف الصياغة ما فيه — :

اذا همذان اعتارها القر وانقضى ... بزعمك أيلول وأنت مقيم
فسيك عشاء وأنفك سائل ... ووجهك مسود الثياب بهيم
وأنت أسير البرد تمشي بذلة ... على الصيف تحجو مرة وتقوم
بلاد اذا ما الصيف أقبل جنة ... ولكنها عند الشتاء جحيم

واذا كان هذا من مختار شعره فما ندري كيف يكون مرذوله وغثه بعد ذلك! ولا نحسب القارئ في حاجة الى تنبيهه الى ما في هذا الشعر من فساد الذوق اذ يخاطبه بقوله « فسيك عشاء » الى آخر هذه الاصوات التي نستحي أن لا يجيب صاحبها الى تحقيقها ، وانظر الى لغوي يصرف كلمة عشاء في شعر لا يستحق عناء سماعه فضلاً عن تكلف نظمه !